﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾

[المنافقون: 9 - 11]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد التّحذير من صفات المنافقين: دعــوةُ المؤمنين لِمَعالِمِ الخير

بعد أنْ كشَفَ النّظمُ الجليل صفاتِ المنافقين وفضح خبيئةَ قلوبهم وأظهر مساوِئَ أقوالهم للحذر منهم والتّحذير من صفاتهم: انتقل الخطابُ إلى المؤمنين ينبّههم ويحذّرهم من مشابهة المنافقين، ويدلّهم على الخير ويأمرهم بالإنفاق والإقبال على ذكر الله تعالى وحسن عبادته؛ فهو انتقالٌ من حكاية حال المنافقين إلى خطاب المؤمنين[1].

ومن دقيق المناسبة أنّه لمّا كان ما قصّه اللهُ ﷻ عن المنافقين يُتعجّب منه غايةَ العجب من تصوُّرِ قائله له، فضلًا عن أن يتفوّه به، فكيف بأن يعتقده؟! نبّه هنا على العلّة الموجبة انطماسَ بصيرة المنافقين، وهي إقبالهم بقلوبهم على الدنيا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُلۡهِكُمۡ﴾: (لهي) أصلٌ يدلّ على شُغْلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ؛ يُقال لَهيتُ عنِ الشَّيءِ إذا تركته لغَيرِهِ[3]. ويُعبَّر باللّهو عن كلِّ ما بِهِ استمتاع، وما فيه شُغلٌ عمّا هو أهمُّ منه إليه[4]؛ وقول الله تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 250.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 614.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لهو).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لهو).

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 3] أي: ساهيةً مشتغلة بما لا يعنيها. والمراد به في الآية الكريمة: لا يشغلكم[1].

2) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: (خسر) أصلٌ يدلّ على النّقص؛ فيقال خَسِر فلان يَخْسَرُ خُسْرًا وخُسْرانًا أي نقصَ، ويقال خَسَرْتُ الميزانَ وأخسَرْتُه إذا نَقصتَه[2]. والخُسْرُ والخُسْران: انتقاص رأس المال، ويُنسب ذلك إلى الإنسان، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته، وصَفَقَ صَفْقَةً خاسِرَةً، أي: غير مُرْبحةٍ[3]. ويُستعملُ الخُسرانُ في المُقتنيات النَّفسيَّةِ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثَّوابِ، وهو الَّذي جعلَه اللّه تعالى الخُسرانَ المبينَ[4]؛ والمراد به في الآية الكريمة: المغبونون بحظوظهم[5].

3) ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: (صدق) أصلٌ يدلّ على قوّة في الشّيء، قولًا وغيرَه؛ من ذلك الصّدق خلاف الكذب[6]. والصَّدَقَةُ: ما يُخرِجه الإنسان من ماله على وجه القُربَة كالزّكاة، لكنّ الصدّقة في الأصل تقال للمتطوِّع به، والزّكاةَ للواجب؛ وقد يُسَمّى الواجبُ صدقةً إذا تحرّى صاحبُها الصّدقَ في فعله[7]. والمُتَصَدِّق: مَن يُعطي الصّدَقَةَ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ [الحديد: 18]، بتشديد الصّاد؛ أصلُه المُتَصَدِّقينَ، فقُلِبَتِ التّاءُ صادًا، وأُدغِمت في مِثلها. ومِثلُه قول اللّه تعالى هنا ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، أصله: (فأتصدّق)[8]؛ والمراد به: أتصدّق وأُزَكّي مالي[9].

4) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: (صلح) أصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[10]، ويكون الرجلُ صالحًا في نفسه ومُصلِحًا في أعماله وأموره. والصُّلْحُ: تصالُحُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(3) الخليل، العين: (خسر).
(4) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(5) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 446.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(7) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (صدق).
(9) العليميّ، فتح الرّحمن: 7/ 70.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).

القوم بينهم[1]. فالصَّلاحُ: ضدّ الفساد، وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال؛ وقوبِل في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسّيّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: 102]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][2]. والمراد بالصّالحين في الآية: المؤمنون المنفقون المطيعون لله[3].

5) ﴿خَبِيرٌ﴾: (خبر) أصلٌ يدلّ على العِلم؛ فالخُبْرُ: العِلْمُ بالشَّيْءِ، والخبيرُ: العالمُ بالأمر[4]. والخُبْرُ أيضًا: مَخْبَرَة الإنْسانِ، إذا خُبِرَ أي جُرِّبَ فَبَدَتْ أخْلاقُهُ؛ والخابِرُ: المُخْتَبِرُ المُجَرِّبُ؛ والخِبْرَةُ: الاختِبارُ، تقول: أنتَ أبْطَنُ به خِبْرَةً، وأطْوَلُ له عِشْرَةً[5]. والخُبْرُ: العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخَبَر. وخَبَرْتُهُ خُبْراً وخِبْرَة، وأخْبَرْتُ: أعلمْتُ بما حصل لي من الخَبَر؛ والخِبْرَة المعرفة ببواطن الأمر، والله تعالى الخَبيرُ، أي: العالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ والمراد به في الآية الكريمة: عالمٌ بأخبار أعمالكم، وببواطنِ أموركم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى مخاطبًا المؤمنين الَّذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بأحكام شريعته: لا تَشْغَلْكم أموالكم ولا أولادكم عن عبادة الله وطاعته والقيام بحقوقه وأداء فرائضه الَّتي فرضها عليكم، لأنّ من شغلته أموالُه وأولاده عن ذلك الحقّ، فأولئك هم البعداء في الخسارة. ثمّ يأمرهم بالإنفاق من بعض ما أعطاهم الله من رزقه وفضله، على وجه المبادرة في فعل الخير قبل أن يجيءَ الموتُ فيقطعَ آجالهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم نادمًا: يا ربِّ هلّا أمهلتني،

المبادرةُ بالعمل الصّالح قبلَ فَواتِ الأوان

(1) الخليل، العين: (صلح).
(2) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 417.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خبر).
(6) الرّاغب، المفردات: (خبر).

وأجَّلت موتي قليلًا من الأمد ليتسنّى لي الإنفاقُ الكثير، ولِأكونَ من زمرة الصّالحين الأتقياء. ولكنّ هذا محضُ أماني، إذْ إنّ الله تعالى لن يؤخّر نفسًا إذا انقضى عمرُها وحلّ أوانُ موتِها؛ والله سبحانه خبيرٌ بالّذي تعملونه من خيرٍ وشرٍّ، عالمٌ ببواطن أعمالكم ومقاصدكم، وسيجازيكم على ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصلِ الآية عن سابِقَتِها:

فَصَلَ النّظمُ الجليل الجملةَ من قول الله جلّ شأنُه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ عن سابقتها: لأنّها مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، سيقت لمخاطبة المؤمنين، لِتَأمُرَهم بطاعة الله تعالى، وتنهاهم عن الاشتغال بالأموال والأولاد ونسيانِ ذكر الله تعالى[2].

أهــلُ الإيــمــان أجــدَرُ بالإنفاق والــسّــعــيِ في سُبُلِ الخير

بلاغة النِّداء:

عَبَّر النّظمُ الجليل بأسلوبِ النّداء في قول الله جلّ شأنه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ للتّنبيه والاهتمام على مضمون الخطاب؛ فهو نداءٌ بتكليفٍ جديد، وبموعظةٍ يجب الانتباهُ إليها[3]. فاستعمالُ أسلوبِ النِّداء لزيادة الإيقاظ والإبلاغ في التّنبيه من الغَفلَة الّتي تعتري الإنسان، وفيه لَفتُ انتباهِ المُنادَى عليه بأهمِّيَّة الكلام الّذي يسمعه.

الــتّــحــذيــرُ مــن خــطــورة الانــشــغــال بالأموال والأولادِ عَن ذِكرِ الله

غرض النّداء بالموصوليّة:

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسم الموصول في قول الله جلّ شأنه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن

الإيمانُ أساسُ الشّريعة

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 555.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 413.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريُّ الجامع: 28/ 93.

﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: لما تحمله صلة الموصولِ من داعي الامتثال والاعتناء للنّهي الوارد في الآية بعدم الانشغال بالمال والولد عن ذكر الله، ولِما تُؤذِن به الصِّلةُ من علّة الخطاب، للإقبال على مضمون الخطاب والاهتمام به؛ فبسبب الإيمان خوطبوا بالتّكليف[1].

نُكتةُ التّعبير بالماضي:

عدمُ الانشغال عن ذِكرِ الله من علاماتِ رُسوخِ الإيمان

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عن فِعلِ الإيمان بصيغة الماضي في قول الله جلّ شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: للدّلالة على تحقُّقِ الإيمان، أي: (يا من آمنتم بالله تعالى إيمانًا حقًّا[2]، ورَسَخ في قلوبكم الإيمانُ رسوخًا جعلكم لا تنشغلون بالمال والولد عن ذكر الله تعالى).

دلالة النّهي:

تحذيرُ أهلِ الإيمان من الافتتان بزينةِ الحياة الدّنيا

عبّر النّظم الجليل بأسلوب النّهي في قول الله جلّ شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ تنبيهًا وتحذيرًا بالغًا من الانشغال بزينتَي الدّنيا: المالِ والوَلد، ومن التّمتّع بهما عن المقصد الأعلى وهو ذكر الله[3]. ومن فوائد هذا الانتهاء أنّه يحمل في طَيّاتِه قطعَ وساوِسِ الشّيطان، لا سيَّما وأنّ المال والولد من الغرائزِ الفِطريّة الّتي ينشأ الإنسانُ على حُبِّها والتمسُّكِ بها؛ فكان النّهيُ هو الأسلوبَ الحاسمَ والمناسبَ للتّحذير عن الانشغال بها عن ذكر الله تعالى.

بلاغةُ التّعبيرِ بالإلهاء:

الانشغالُ بما لا يُغني ممّا لا يليقُ بالمؤمنين

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الإلهاء في قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ دون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 251.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 413.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.

الانشغال: لأنّ الانشغالَ منه ما هو محمودٌ - كما في قولِ النبيِّ ﷺ «إنّ في الصّلاة شُغْلًا»[1]، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ [يس: 55] - ومنه ما هو مذمومٌ، كما في قوله تعالى: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: 11]؛ أمّا الإلهاء فهو مذمومٌ على وجه العموم. فاختار السّياق القرآنيُّ ما هو أوفَقُ للمعنى، لدلالة اللّهو على العمل الذي يشغل عن الواجب بلا جدوى فيه ولا فائدة؛ فالنّهي في الآية عن الانشغال عن عبادة الله تعالى بما لا فائدةَ فيه[2].

سرّ تخصيصِ الأموال والأولاد:

خُصّ النَّهيُ عن الالتهاء بالأموال والأولاد دون غيرهما لشدّة تسبُّبِهما في وجود اللّهو والانفعال فيه، ولأنّهما في فطرة الإنسان السببُ الرَّئيس في الإلهاء والانشغال عن طاعة الله.

نُكتةُ تقديمِ الأموال:

قدّم النّظمُ الجليلُ لفظَ الأموالِ على الأولاد في قول الله تعالى ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لأنّ السّياق جاء في الرّدّ على المنافقين ونهي التّشبّه بهم في البخل وعدم الإنفاق؛ فقُدِّم ذكر المال لمناسبة السّياق. ومن أسباب تقديم ذكر الأموال على الأولاد أنّ الأموال ممّا يَكثُر إقبال الناس على تنميتها والتّفكير في كسبها، بحيث تكون أوقاتُ الشغل بها أكثرَ من أوقات الشغل بالأولاد؛ وكما أنّها تشغل عن ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها، فإنّها تشغل عن ذكره أيضًا بالتّفكير في كَنْزِها والحفاظ عليها؛ والمقام هنا يتعلّق بالإلهاء، وليس بمقام حبّ الأولاد حتّى يُقَدَّموا في الذِّكر على المال[3].

التّحذيرُ من مشابهة المنافقين في حِرصهم وبُخلِهم

(1) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1199)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (538).
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريُّ الجامع: 28/ 93.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 250.

بلاغة الإدماج:

وجود قاسمٍ مشترَكٍ بين الأموال والأولاد في الإلهاء والانشغال عن ذكر الله

أدمج النّظمُ الجليلُ ذكرَ الأولاد مع الأموال في قول الله جلّ شأنه ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ - وإن كان السّياق في شأن الأموال - "لأنّ الاشتغال بالأولاد والشَّفقةَ عليهم وتدبيرَ شؤونهم وقضاءَ الأوقات في التأنُّس بهم من شأنه أنْ يُنسيَ عن تذكُّر أمر الله ونهيِه في أوقاتٍ كثيرة؛ فالشُّغلُ بهذين أكثرُ من الشُّغلِ بغيرهما"[1].

دلالة إعادة حرفِ النّفي:

استقلال النّفي تأكيدٌ على شمول النّهي

أعاد النّظمُ الجليلُ حرفَ النّفي ﴿لَا﴾ مع ذِكرِ الأولاد في قول الله جلّ شأنُه ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ لتأكيد النّهي، لأنّ "كلًّا من الأموال والأولاد سببٌ من أسباب اللّهو؛ أي: (لا تُلهِكم أموالُكم بمفردها، ولا تُلهِكم أولادُكم بمفردها، أو لا تُلهِكم أموالُكم وأولادكم معًا)"[2]. فلو لم تُذكَر اللّام بأن قيل: (لا تُلهِكم أموالُكم وأولادُكم) لَتوُهِّم أنّ النهي موجَّهٌ للجمع بينهما، أمّا إذا انفرد الانشغال بواحد منهما على سبيل الانفراد جاز؛ وهذا غيرُ مرادٍ في سياق الآية، فالأموال والأولاد كلٌّ واحدة منهما شاغلةٌ عن ذكر الله على حِدَة، فليكن المؤمن على حَذَرٍ من ذلك[3].

بلاغة المجاز العقليّ:

نهيٌ بَليغٌ عن الرُّكون إلى الأموال والأولاد

أُسنِد الإلهاء إلى الأموال والأولاد في قول الله جلّ شأنه ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، والمراد بالنَّهي هم المخاطَبون، لكن لم يُقل: (لا تَلتَهوا بالأموال والأولاد عن ذكر الله)، بل عدل عن ذلك على طريقة المجاز العقليّ؛ فهو من باب إطلاق المسبَّب على السّبب، أي: (لا تكونوا بحيث تُلهيكم الأموالُ والأولادُ)[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 251.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريُّ الجامع: 28/ 93.
(3) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 190.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 440.

وعُدِل عن توجيه النَّهي للمخاطَبين إلى توجيهه للأموال والأولاد: للمبالغة في النّهي عنهما؛ فجُعِل النّهي مُنصَبًّا عليهما لا على المخاطَبين[1]، وذلك لقوّة تسبُّبِهما في اللهْو، وشِدَّةِ التِصاقهما فيه، ولأنّهما السببُ الرَّئيس في الإلهاء. فكأنّ القرآن يأمر المؤمنين أن يَحموا أنفسهم من هذا السَّبب؛ وفي ذلك من التَّعليم والتَّنبيه للمؤمن ما لا يخفى، من باب أخذ الحذَرِ حتّى لا يَقَعوا في سبب الإلهاء، فضلًا مِن أن يتلبَّسوا به.

نكتة الإضافة إلى المخاطَب:

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الأموال والأولاد إلى كاف الخطاب في قول الله جلّ شأنُه: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ للدّلالة على أنّ الأموال الَّتي تهتمّون بجمعها وتحصيلها، والأولادَ الَّذين هم من أصلابكم: لا ينبغي أن يكونا سببًا في صَرفِكم عن ذكر الله تعالى[2].

أخصُّ ما يملك العبد لا ينبغي أن يَصرِفَه عنِ الله

نكتة التّعديَة بحرف المجاوزة:

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿عَن﴾ في قول الله جلّ شأنه ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: لدلالته على المُجاوزة والمُباعَدة[3]؛ أي (لا تَشغَلْكم ولا تُبعِدْكم عن ذكر الله تعالى). فعُلم أنّ المنهيَّ هو أن يكون اللّهوُ بهما شاغلًا عن ذكر الله تعالى، أمّا إذا لم يكن كذلك فهو ليس في حيّز النّهي[4].

النّهيُ عن الأسباب المؤدّية إلى البعد عن ذكر الله

سِرُّ تخصيص الذِّكر:

عبّر النّظمُ الجليلُ بذكر الله تعالى في قوله جلّ شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ دون

كلّ العباداتِ ذكرٌ لله تعالى

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 413.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 93.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 440.

غيره من العبادات - فلم يُقل (لا تُلهِكم عن الصَّلاة أو الزَّكاة أو الجهاد) - لأنّ لفظ الذكر لفظٌ عامّ، يشمل جميعَ الفرائض من صلاةٍ وزكاةٍ وغيرها، لأنّ كلَّ عمل يعمله الإنسان يقصد به وجهَ الله هو ذكر لله.

والذِّكرُ لفظ يجمع بين المعنى الحقيقيِّ والمجازيّ؛ فهو يدلّ على ذكر اللّسان حقيقة، ويدلّ على الصّلاة والعبادة مجازًا[1]. والغرض من ذلك الدّلالةُ على العموم والشّمول، فهو يشمل كلّ أعمال الطّاعة والعبادة[2].

دلالة إضافة الذِّكر لله:

ذِكرُ الله أكبرُ من كلِّ ذِكر، وهو أولى بالانشغال به وأجدَر

أضاف النّظمُ الجليلُ الذّكر إلى اسم الله في قوله جلّ شأنه ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، وذلك للتّذكير بعِظَم عبادة الله تعالى وذِكره، فيكون ذلك دالًّا على كمال التّحذير من الانشغال بالأموال والأولاد؛ فهو "المِلك الأعظم الّذي له الإحاطةُ الكاملةُ بكلِّ شيء، فله الملك، وله الحمد، يُعطي من يشاء، ويمنع من يشاء"[3].

وآثر القرآن الكريم التَّعبيرَ باسم ﴿ٱللَّهِۚ﴾ دون اسم الرُّبوبيّة (الربّ): لأنّ المقامَ هنا مقامُ نهيٍ وهيبةٍ وجلالٍ، وتحذيرٍ وترهيبٍ للمؤمنين ممّا وقع به المنافقون فيناسبُه التَّعبيرُ باسم الجلالة، الذي يُرَبّي المهابة في القلوب.

دلالة الواو في ﴿وَمَن﴾:

الانشغال عن ذكر الله هو الخُسرانُ المُبين

افتتح النّظمُ الجليلُ فاصلة الآية بالواو في قول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لدلالتها على الاستئناف[4]؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 251.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 440.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 92.
(4) محمود صافي، الجدول: 14/ 260.

فالجملة مستأنَفةٌ لبيان عاقبة من يخالف النّهي الّذي جاء ذِكرُه في صدر الآية. فالنّهيُ يقتضي الكفَّ عن الفعل[1]، لذلك أطلق النّظمُ حكم الخسارة على المخالِفِ له.

بلاغة الجملة الشّرطيّة:

عبّر النّظمُ الجليلُ بالجملة الشّرطيّة في قول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لبيان التّلازُم بين الخسارة وبين فِعلِ اللّهو عن ذكر الله تعالى وعبادته.

دلالة التّعبير بمادّة الفعل:

كلّ فعلٍ يُصرَف عن عبادة الله سبيلٌ للخسارة والمَحْق

عبّر النّظم الجليل بمادّة الفعل في قول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ دون (يعمل) لدلالة الفعل على العموم؛ فهو يشمل ما فُعل بإجادةٍ أو بغير إجادةٍ، وما كان بعلمٍ أو بغير علمٍ، وما كان بقَصْدٍ أو بغير قصدٍ[2].

دلالة صيغة المُضارَعة:

الخُسرانُ نتيجةُ الإصرار والتّكرار

جاء التّعبير بالفعل المضارع في قول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ للدّلالة على التّجدّد والاستمرار باللّهو بالأموال والأولاد[3]؛ فلم يأت بالماضي لدلالته على أنّ ذلك الخسرانَ الكبير يتحقّق لو وقع الإلهاء مرّةً واحدة. وهذا غيرُ مراد، إذْ ليس من المعقول أن يكون ذلك الخسرانُ الكبير للوقوع في الإلهاء لمرّةٍ واحدةٍ، بل المناسِبُ أن يكون لمن تكرّر منه الوقوع.

سِرُّ الإسناد إلى المُلْتهي:

كلُّ نفسٍ بما كسبت رَهينة

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بقول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، ولم يُقل: (ومَن تُلهِهِ تلك)، بل نُسب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 252.
(2) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الزّيّ الجامع: 28/ 93.

الفعل إلى المُلتهي: لينال بذلك جزاءَه، ولئلّا يُفهَمَ أنّه ليس بمقدورِ الشَّخص الانصرافُ عن اللّهو، وأنّه ليس بمسؤولٍ عن هذا الإلهاء؛ فجاء ذلك التَّعبيرُ للدِّلالة على أنّ الإلهاء من فعله وكسبه، وأنّه بمقدوره أن ينتهيَ عنه[1].

نكتة استعمالِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

ما أبعدَ اللَّذهين عن منازل السّائرين

عبّر النّظم الجليل باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالِّ على البُعد في قول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لإشارته إلى اللّهو عن ذكر الله تعالى بالأموال والأولاد[2]، وكأنّه يُصوِّر مَشهَدَ الإلهاء بالأموال والأولاد أمامَ أعيُن الناظرين؛ ففي الإشارة تبكيتٌ لهم على ما فعلوا. وفي اختيار الاسم الموضوعِ للبعيد دلالةٌ على المبالغة في بُعدِ اللّهو عن الخير والعمل الصّالح.

دلالة الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

شِدّة الارتباط بين الفعل والجزاء المُعَدِّ له

عبّر النّظم الجليل بالفاء الرّابطة في قول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لِتَربِطَ الجوابَ بالشّرط[3]؛ فهي تفيد السّببيّةَ والتّرتّبَ الحَتميَّ بين اللّهو عن ذكر الله تعالى وبين الخسارة. فالانشغال بالدّنيا عن ذِكر الله تعالى جزاؤُه الخسرانُ على وجه اللّزوم[4].

نكتة التّعبير بـ(أولئك):

المشتغِل بالدّنيا عن طاعة مولاه في أقصى مراتبِ الخُسران

عبّر النّظمُ الجليلُ باسم الإشارة (أولئك) الدّالِّ على البعد في قول الله جلّ شأنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ للدّلالة على أنّهم في أقصى مراتبِ الخسران والغفلة؛ لمخالفتهم طاعةَ الله، وانشغالِهم بملذّات الدّنيا ومباهجها[5]. وفيه إشارةٌ إلى بعد منزلتهم عن ذِكر

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 190.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 184.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 730.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 252.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 414.

اللّه، بانشغالهم بأموالهم وأولادهم، حتّى لم يعد عندهم شيءٌ ينشغلون به إلّا الأموال والأولاد.

بلاغة القَصر:

الخاسِرُ الحقيقيُّ من انقضَتْ أيّامُه بعيدًا عن ذكر الله

عرّف النّظمُ الجليلُ طرفَي الإسناد ووسَّطهما بضمير الفصل في قول اللّه جلّ شأنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: للدّلالة على حصر صفةِ الخسارة بهم، قصرَ صفةٍ على موصوف. وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ للمبالغة في اتّصافهم بالخسران؛ فخسران غيرهم لا يُعَدّ خسرانًا بالنَّظر إلى خُسرانِهم[1].

دلالة التّعبير بالخاسرين:

من يشتري مُتعَةً بدلًا عن الخير المطلَق هو العريق في الخسارة

عبّر النّظم الجليل بلفظ الخسارة في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنّ استبدالَ العاجل بالآجل هو بمنزلة البيع والشّراء، فوصَفَهم بالخسران لأنّهم باعوا الآجلَ العظيم الباقيَ بالحقير العاجل الفاني[2]. ثمّ إنّ الوصفَ بالخسران هو المناسِبُ لسياق الآية، لأنّ الالتهاء بالأموال يكون لغرض الرِّبح وتنميته وزيادته وجمعه للأولاد، من أجْل نعيم زائل ألهاهم عن ذكر اللّه؛ ومثل ذلك لا يُعَدّ رِبحًا، بل هو خسرانٌ مبينٌ. يؤكّد ذلك أنّ التّعبير جاء بصيغة اسم الفاعل، للدّلالة على المبالغة في الوصف؛ أي (الكاملون في الخسران، العريقون فيه)، خسارةً ثابتةً لا تزول[3].

نكتة حذف متعلّق الخبر:

من خَسِر ثوابَ اللّه لم يربَحْ شيئًا

حذف النّظمُ الجليلُ متعلّق الخسارة في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ للدّلالة على عموم الخسارة، فهم خسِروا أنفسَهم وأهليهم وحياتَهم وآخرتَهم[4]؛ فالحذف يدلّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 252.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 441.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 93.

على التّعميم، والمراد به المبالغةُ بسَعَةِ خسرانهم، فخسارتُهم فوقَ كلِّ خُسرانٍ[1].

نُكتةُ عطف الأمرِ بالإنفاق:

التّحذير من الانشغال بالدّنيا متبوعٌ بالدّعوة إلى سُبُل الخير

عطف النّظمُ الجليلُ الأمرَ بالإنفاق في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ على النّهي الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2]: لأنّه لمّا حذّر من الإقبال على الدّنيا والانشغال بها عطف عليه التّرغيبَ بالإنفاق والبذلِ لمخالفة المنافقين الَّذين قالوا ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾[3].

دلالةُ الفعل (أنفِقوا):

ما يُنفَق في سبيل الله يُدَّخَرُ فيَبقَى، وما بَقيَ في الدّنيا يَزول ويفنى

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بمادّة الإنفاق دون غيرها في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ لأنّه يدلّ على مُضيِّ الشيء ونفاذه؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ المؤمن يُنفِق من ماله لا ينتظر ثوابًا من النّاس، بل ينقطع رجاؤه من طلب ذلك منهم، لأنّه أخرجه واقتطعه فصار في حكم المفصول عن ماله. وكأنّ التعبير بالإنفاق يُشير إلى فناء الدنيا بما فيها. وفي هذا ردٌّ على المنافقين الَّذين قالوا لأصحابهم ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وتمييزٌ لأهل الإيمان بقبول دعوة الإنفاق على الفقراء والمساكين.

وجاء الإنفاق بفعل الأمر ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ لدلالته على مُطلَق الطّلب، فيشمل الواجبَ والمستحبّ؛ فالإنفاق المأمور به يشمل ما يجبُ إنفاقُه وما يُندَبُ إليه[4]، "الزّكاةَ وصدقةَ التّطوع والنّفقةَ في الجهاد وغيرَ ذلك"[5].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 441.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 731.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 441.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 252.
(5) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 379.

دلالةُ ﴿مِن﴾:

من لُطف المولى الرَّزّاق بالقليل من عباده

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾، وهي هنا للتّبعيض؛ أي (أنفقوا بعضَ ما رزقناكم)[1]. والأمر بإنفاق بعضِ الرّزق هو توسعةٌ من الله تعالى على المسلمين، إذْ أعطاهم الكثيرَ، ورضي منهم بالقليل[2]، وهذا من سماحة الدّين ويُسرِه.

دلالة التّعبير بـ﴿مَّا﴾:

كلّ ما كان رِزقًا مِنَ الله ففيه حقٌّ للإنفاق

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول ﴿مَّا﴾ في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ دون (الّذي): لِما فيه من الدِّلالة على العموم، فهو أعمُّ وأكثرُ شمولًا مِنَ (الَّذي)[3]؛ فالإنفاق يشمَل المالَ وغيرَه، وكلُّ ما يملِكُه الإنسان، هو ممّا رَزَقَه الكريمُ المنّان.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعلِ (رَزَقَ):

رِزقُ اللهِ سابِغٌ على ابْنِ آدم

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بمادّة الرِّزق في قول الله تعالى ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ دون غيرِها لأنّه عامّ، يُقال للعطاء الجاري دنيويًّا كان أو أُخرَويًّا، ولِما يَصِل إلى الجوف ويُتغذَّى به، ويُطلَق على المال والجاه والعلم؛ لذلك كان التَّعبيرُ به لعموم مَدلولِه، ولأنّ الإنسانَ مُطالَبٌ بالإنفاق من علمه وجاهه، كما هو مُطالَبٌ بالإنفاق من ماله.

وعبّر النّظم الجليل عنه بصيغة الماضي ﴿رَزَقْنَـٰكُم﴾ للدّلالة على أنّ الإنفاق ممّا تحقّق من الرّزق، أي: (ممّا أعطيناكم من الأرزاق الكثيرة)[4].

بلاغة الالتفات إلى التَّكَلُّم:

الرّزقُ فضلٌ عظيمٌ ومِنّةٌ جليلةٌ من الجليل

التفتَ النّظم الجليل من ضمير الغَيبة في قول الله جلّ شأنه ﴿لَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 253.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 94.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 415.

تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ إلى ضمير المتكلّم في قوله ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾، حيث أُسنِد الرّزق إلى ذات الله الجليلة: ليكون أدعى إلى طاعة الأمر، ولبيان أنّه تعالى هو الذي رزقهم بعظمته وفضله، وللإعلام بأنّ الأرزاق كلَّها منه تعالى، فهو المالك لكلِّ شيء، وبيده خزائنُ السَّموات والأرض؛ إلّا أنّه - تفضُّلًا منه - اكتفى منهم بإنفاق جزءٍ من تلك الأرزاق[1]، يدفعه العبد عن طيبِ نَفْسٍ، ويَكسِر شُحَّ نفسه، لأنّ الَّذي يملك العطاء والمنع هو الله. وجاء التّعبير بضمير التّعظيم للدّلالة على عظمة رزقه، أي: (ممّا رزقناكم بما لنا من عَظَمةٍ)[2].

دلالة التّعبير بـ﴿مِّن﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قول الله جلّ شأنه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ وهي لابتداء الغاية؛ وفي هذا التّعبير دليلٌ على كمال تفضُّلِه تعالى، بقبول القليل من عباده وإن كان في زمنٍ قريب من حلول الأجل، للتّرغيب في التّأهّبِ للرّحيل عن هذه الدّنيا[3].

مهما طال الأجلُ فإنّ الدّنيا قصيرة

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى قُرب الموت من الإنسان، الَّذي يقتضي أن يكون على استعدادٍ تامّ، لأنّ الموت قد يباغته في أيّ لحظةٍ؛ بخلاف خلوِّ التَّعبير من حرف الابتداء، فإنّه يدلّ على عموم الوقت قبل الموت، قريبًا كان أو بعيدًا.

فائدة الظّرفيّة:

عبّر النّظم الجليل بالظّرف الزمانيِّ ﴿قَبۡلِ﴾ في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾

الموتُ أعجلُ غائبٍ بالمثُول

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 415.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 94.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 94.

للإشارة إلى قرب الموت، وللدّلالة على قَبول الإنفاق وإن كان في زمنٍ قريبٍ من أجَل الموت[1]، تحريضًا على المبادرة بالأعمال والإنفاق قبل فوات الأوان.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾:

المَـرْءُ في فُسْحةٍ من الوقت ما لم يَحضُرْ أجلُهُ

عبّر النّظم الجليل بالفعل من مادّة الإتيان في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ لأنّ الإتيان يدلّ على سهولة المجيء[2]؛ ولم يقل: (من قبل أن يجيءَ أحدَكم الموت) "لأنّ المجيءَ فيه صعوبةٌ ومشقّةٌ على النّفس، والموت لم تبدأ سكراتُه بعدُ، فلو بدأت سكراتُه لاستعمل جاء. وبما أنّه سيحدث في المستقبل ولم يجئ بعدُ: اختار ﴿يَأۡتِيَ﴾" بصيغة المضارع[3].

نكتة تقديم المفعول:

الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر

قدّم النّظم الجليل المفعول به على الفاعل في قول الله جلّ شأنه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ فلم يقل (يأتي الموتُ أحدَكم): لأنَّ النّفسَ أهَمُّ للسّامع من سواها، والإنسانَ هو المقصودُ بأمر التَّوبة والإنفاق قبل حلول الأجل، وهو الَّذي يندم إذا عاجله الموت؛ وأخّر الموت لكراهة النّفوس له[4].

بلاغة المجاز في إتيان الموت:

مـجـيء المـوت صـورة مَهيبة لحضورٍ رهيب

أسند النّظم الجليل الإتيانَ للموت في قول الله جلّ شأنه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ على طريقة الاستعارة، فشبّه الموتَ بشخصٍ يأتي، فحُذِف المشبَّه به وأُبقيت صفة الإتيان، والجامع هو الحضور والمباغتة. وذلك يُضفي على الموت الهَيبة والرّهبة، ويجعل حضوره في الذِّهن أشدّ وقعًا، فهو زائرٌ لا يَستأذن.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 94.
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 94.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 94.

وفي التَّعبير بالإتيان إشارةٌ أيضًا إلى أنّ الموت قد انطلق لمقابلة الإنسان، ثمّ قد يأتيه في أيّ لحظة، في صِغَرِه أو كِبَره؛ وفي هذا دعوةٌ للإنسان أن يكون مستعدًّا لاستقبال هذا الآتي.

دلالة العطف بالفاء:

تَمَنّي الإمدادِ مُسبَّبٌ عن دُنوِّ الموت

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قول الله جلّ شأنه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ دون غيرها من حروف العطف: لأنّها تفيدُ مع العطف السببيّةَ، حيثُ عَطفَتِ القولَ على الإتيان، فهذا القول مترتّب عليه، ومسبَّبٌ عنه، ويجيء عَقِبَهُ[1].

دلالة الفعل (يقول):

إلحاحُ المُتَحَسِّرِ عند دُنوِّ الأجَل

آثر القرآن الكريم في قول الله جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ التّعبيرَ بمادّة القول دون غيرها - كالكلام مثلًا - لأنّ لفظَ القول أعمّ، فيشمل الكلامَ وغيرَه، ويُطلَق على الكلام النفسيّ، وفي هذا تصويرٌ للحالة الَّتي يكون عليها الإنسان عندما يرى علاماتِ الموت، فينادي ربَّه - سواء كان ذلك النِّداء عَلَنًا أو سِرًّا؛ ولا يتأتَّى ذلك إلّا من مادّة القول. وجاء الفعل مضارعًا للدّلالة على أنّه يجدِّد هذا القولَ ويُصِرُّ عليه، إظهارًا لإلحاحه وتشبّثه.

نكتة حذف حرف النّداء:

الاستعجال في الخطاب يقتضي حذفَ ما يُمكِن حذفُه

حذف النّظم الجليل حرفَ النّداء في قول الله جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾، فلم يقل (يا ربِّ): لأنّ الله تعالى قريبٌ من عباده، فلا حاجةَ في مخاطبته إلى حرف النّداء الدّالّ على التّنبيه؛ كما أنّ مَن حضرته الوفاةُ فإنّ الوقتَ قصيرٌ، فحَذفُ حرفِ النّداء أنسبُ لسرعة الخطاب[2]. وفيه تصويرٌ لِلَهْفَة الإنسان إلى تأخير الأجل للعمل الصّالح.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 414.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 94.

دلالة النّداء باسمِ الرّبوبيّة:

عطاءُ الربوبيّة يُطمِع كلّ مُحتاج

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الرّبوبيّة في قول الله تعالى ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِى﴾: لمناسبة السّياق، الدّالِّ على التّرحُّم والتوسُّل بعَطْفِ الله تعالى ورأفتِه[1].

نُكتةُ حذفِ ياء الإضافة:

ضيقُ الوقت معجّل بالخطاب

حذفَ النّظمُ الجليل ياءَ المتكلّم المضاف إليه في قول الله جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ﴾ فلم يقل (ربّي): لأنّ مَن حضرتْه الوفاةُ ليس لديه سَعةٌ من الوقت، فهو يتعجّل في الخطاب؛ فحَذفُ الياء لمناسبة ضيق الوقت[2].

دلالةُ حرفِ التّحضيض:

كمال التوسُّل لِنَيلِ المطلوب عند شدّة الحاجة إليه

عبّر النّظم الجليل بالحرف ﴿لَوْلَآ﴾ في قول الله جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ دون (لو): لأنّ ﴿لَوْلَآ﴾ للتّحضيض والطّلب الحثيث، والطَّلب بها يصوِّر حالةَ المضطرّ، أي: (هلّا أخّرتني)؛ وهو طلبٌ لما يُضطّر إليه[3]، فإنّهم طلبوا طلبًا بكمال التّوسّل والرّجاء أن يُمهِلَهم إلى أجلٍ ليُظهروا الطّاعة. و﴿لَوْلَآ﴾ أكثر حروفًا من (لو)، وهذا مناسب في طلب الشَّيء والإلحاح عليه، بخلاف التّعبير بـ(لو)، فإنّها لا تُفيد إلّا مجرّد العَرضِ دون الإلحاح.

نكتة التّعبير بالماضي:

جُعِل المأمولُ واقعًا حثًّا على الاستجابة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل الماضي في قول الله جلّ شأنه ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ دون المضارع: لتأكيد وقوعه في سياق الدّعاء، حتّى كأنّه قد تحقّق؛ ويدلّ على أنّ المراد به المضارعُ قرينةُ ترتُّبِ الفعلين المضارعين ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ عليه[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 94.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 253.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 253.

نكتةُ تنكيرِ ﴿أَجَلٍ﴾:

مهما قَصُر الأجلُ الممنوح فهو فرصةٌ لاستدراك ما فات

آثر النّظم الكريم تنكيرَ لفظِ الأجل في قول الله جلّ شأنه ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: للدّلالة على التّقليل، أي: (إلى أمدٍ ليس بعيدًا)[1]؛ وذلك أدنى أن يُجاب له، وأيسر في التّحقيق، وكلُّ شيءٍ على الله يسيرٌ؛ وبالزّمن القليل يمكن استدراك ما فات من التّفريط، فلم يطلبوا أجلًا ليَعيشوا مدّةً أطول[2].

دلالة الوصفِ بالقُرب:

الأجل القريبُ أرجى في القَبول

وَصَف النّظم الجليل الأجلَ بالقرب في قول الله جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: لأنّه أيسرُ في الطّلب، وأرجى أن يُستجاب له لأنّ النّاس تعارفت على أنّ الأمر اليسيرَ أيسرُ في القبول من البعيد، وغلب ذلك على شعورهم[3]؛ كما أنّه يشير إلى أنّهم لو أُخِّروا سيبادرون على وجه العجالة إلى الإنفاق[4].

دلالة التّعبير بالفاء:

التّصدّق والإنفاق غايةُ تمنّي تأخير الأجل

عبّر النّظم الجليل بحرف (الفاء) في قول الله جلّ شأنه ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهي فاء السببيّة الواقعة في جواب التّحضيض أوِ التّمنّي[5]، فينتصب المضارع بعدها، لأنّه مسبَّبٌ عمّا قبلها؛ فعلّة طلب التّأخير في الأجل هو إيقاع الصّدقة وتحقيق الصّلاح. ودلّ التّعبير بها أيضًا على قرب الزّمن ومبادرتهم إلى تدارُك الفائت لو أُخِّروا، بدلالة الفاء على التّعقيب.

دلالة صيغةِ فعل التَّصَدُّق:

قِصَرُ الوقت يُخوِجُ لإيقاع العهد مؤكّدًا

عبّر النّظم الجليل بالفعل (أصَّدَّق) في قول الله جلّ شأنه ﴿فَأَصَّدَّقَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 253.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 234.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.

وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والأصل فيها (أتَصدّق)، فأُدغِم التّاء في الصّاد: لأنّ المقامَ مقامُ إيجازٍ لقِصَر الوقت بحلول الموت، فاختار الكلمة الأقلّ حروفًا؛ كما أنّ التّضعيفَ يدلّ على المبالغة والتّكثير في الصّدقة، أي إنّه لو أُخِّر إلى أجل قريب سيُكثِر من الصّدقات[1].

توجيهُ قراءتَيْ فعلِ الكَون:

تعداد القراءات تنويعٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ

تعدّدت القراءاتُ لِفعل الكون من قول الله جلّ شأنه ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، حيث قرأه أبو عمرو البصريُّ بالواو ونَصبِ النون ﴿وَأَكُنَ﴾، وقرأ الباقون ﴿وَأَكُن﴾ بالجزم من غير واو. ووجه قراءة أبي عمرو أنّه معطوف على قوله تعالى ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، فهو منصوب كالذي عُطِفَ عليه؛ وإنّما نصب ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لأنّه جوابٌ بالفاء لِما هو أمرٌ بالمعنى، كأنّه قيل: (أخِّرْني فأصَّدَّقَ). فأجاب عن الأمر بالفاء على إضمار (أن) بعده، والتقدير: (فَأَنْ أصّدّق)، فلمّا عطف الفعل على المنصوب نُصِب حملًا على اللّفظ دون الموضع.

وأمّا قراءة الباقين بالجزم فوجهُها أنّها معطوفةٌ على موضع الفاء وما بعده - ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ - لأنّ موضِعَه جزمٌ جوابًا للشّرط المقدَّر، والتقدير: (أخِّرْني أصَّدَّقْ وأكُنْ من الصالحين)؛ فقوله تعالى ﴿وَأَكُن﴾ عطف على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ دون اللّفظ[2].

الاحتباك في العطف بالواو:

الإنفاقُ والصّلاحُ عهدٌ بعد فوات الأوان

عطف النّظم الجليل جملةَ الكينونة على جملة التَّصَدُّق في قول الله جلّ شأنه ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ وإنّما جُزم في عطف الفعل المجزوم - والجزم قراءة الجمهور - على الفعل المنصوب من قول الله تعالى ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 94.
(2) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات وعللها: 3/ 1271.

ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ محسِّنُ الاحتباك، بإفادة التسَبُّبِ والمجازاة في كلٍّ من الفعلَين؛ ففعل التَّحضيض ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ جاء بمعنى الشّرط، وأثّر في الفعل الواقع بعد فاء السببيّة بالنّصب ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، وبالجزم في جواب الشرط ﴿وَأَكُن﴾. ومن لطائفِ هذا الاستعمال القرآنيّ البديع أنّ السائلَ بعد أن حثَّ سؤالَه أعقبه بأنّ الأمر ممكن، وكأنّه قال: (لولا أخّرتَني إلى أجل قريب فأصَّدَّقَ وأكونَ من الصالحين؟ إنْ تُؤَخِّرْني أصَّدَّقْ وأكُنْ من الصّالحين)؛ وفي هذا الاحتباك إيجاز بديعٌ وتوفيرٌ للمعاني[1].

نكتة استعمال فعلِ الكون:

التّعهدُ بالصّلاح على أعلى درجاته

عبّر النّظم الجليل بفعل الكون في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تعبيرًا عن غاية صلاحهم المعهودِ به، حتّى كأنّهم وُجِدوا على صفة الصّلاح وجودًا فطريًّا بخلقتهم؛ وفي هذا التَّعبير تأكيدٌ لصدقِ أُمنيّتهم، وبرهانٌ على شدّةِ حَسرتهم.

دلالة ﴿مِّنَ﴾:

الانتماءُ إلى زُمرة الصّالحين دليلُ كمالِ الصّلاح

عبّر النّظم الجليل في قول الله تعالى ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بحرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ الدالِّ على التبعيض: تعبيرًا منهم بأنّهم يكونون بعضًا من جماعة الصّالحين المعروفين بصلاحهم، العريقين به.

دلالة تعريف ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

عرّف النّظم الجليل الصّالحين بالألف واللّام في قول الله ﷻ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهو دالّ على الجنس، أي من جنس الصّالحين، تأكيدًا لصدق رغبتهم في الاستدراك.

سرّ تقديمِ الصّدقة:

في الإخبار عن ندامة المنافقين تسليةٌ للمؤمنين

قَدّم القرآنُ الكريم ذكرَ الصدقةِ على الصّلاح في قول الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 254.

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: لأنّ السياقَ في مَقامِ الدعوة إلى الإنفاق، بأمر الله تعالى ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، وبما ذكرتِ السورةُ قبله من منع المنافقين الإنفاق على أصحاب رسول الله؛ وفي ذلك تبكيتٌ للمنافقين، وتسليةٌ للمؤمنين.

دلالة الواو:

تذكيرُ أهل الإيمان بانتفاء تغيُّر الآجال

افتتح النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قول الله جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالواو الاعتراضيّة، وسيقت الجملة المعترضة تذكيرًا للمؤمنين بأنّ ساعة الموت محدَّدة لا تتغيّر[1]؛ فهو حثٌّ للمؤمنين على البدار بالطّاعة والتّعجيل بالإنفاق والصّلاح قبل حلول الأجل ودنوّه. ويجوز أن تكون الواو للحال، أي: (قال ذلك والحال أنّه لن يُؤخِّر الله نفسًا إذا جاء أجلها)[2]؛ كما يجوز أن تكون للاستئناف[3].

دلالة النّفي بـ(لن):

سنّةُ الآجال في العباد ماضيةٌ في كلّ الأزمان

آثر النّظم الكريم النّفيَ بـ(لن) في قول الله جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ﴾ للدّلالة على النّفي المؤكَّد؛ فتأخيرُ النّفس عن أجلها منفيٌّ في المستقبل القريب والبعيد نفيًا لا ينتقض[4].

دلالةُ صيغة المضارع:

الإمهالُ والمدُّ في الأعمار مُنتَفٍ انتفاءً متجدِّدًا

جاء التّعبير بالفعل المضارع من التّأخير في قول الله جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ﴾ للدّلالة على تجدُّد النّفي واستمراره؛ فاللهُ لن يُمهِلَ نفسًا فُسحةً من الأجل[5]، لا حاضرًا ولا مستقبلًا، حتّى قيام السّاعة، وهذه سنّةٌ من سُنن الله تعالى في خلقه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 255.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 97.
(3) محمود صافي، الجدول: 14/ 262.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 95.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.

بلاغة الالتفات إلى الغَيبة:

ما نفاه اللهُ تعالى فمَنْ ذا الَّذي يفعله

التفت النّظم الجليل من التكلُّم في قول الله تعالى ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ إلى الاسم الظّاهر في قوله جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾: للدّلالة على أنّه تقديرُ الملِكِ الأعظم الَّذي ليس له كفؤٌ في جلاله وعظمته، فلا اعتراضَ عليه، ولا قدرة لأحدٍ على تغيير آجاله[1].

سِرُّ تنكير ﴿نَفْسًا﴾:

كلّ نفس بأجَلها، والموتُ سنّةٌ عامّة في الخلق

آثر القرآن الكريم تنكيرَ المفعول من قول الله تعالى ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾: للدّلالة على العموم والشّمول؛ فلا تأخيرَ لأيّ نفسٍ، سواء كانت زكيّةً أو مُسيئةً، مؤمنةً أو غيرَ مؤمنة[2].

دلالة التّعبير بـ﴿إِذَا﴾:

حلولُ الأجَل حقيقةٌ لا مَفَرَّ منها

عبّر النّظم الجليل بـ﴿إِذَا﴾ في قول الحقِّ جلّ شأنُه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾، وهو ظرفٌ لما يُستَقبل من الزّمان، متضمِّنٌ معنى الشّرط؛ والشّرط بها يدلّ على حتميّة الوقوع[3]، وأنّ أجَلَ الأنفُس آتٍ على وجه اليقين. ففي التّعبير به قطعٌ لرجاء من يسألون الرجوعَ إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، وحسمٌ لأمانيِّهم.

دلالة التّعبير بالمجيء:

حضورُ الموت فيه صعوبةٌ ومشقّةٌ على النَّفْس

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمجيء في قول الله جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾: لما يدلّ عليه المجيءُ من المشقّة والصعوبة[4]؛ فالموت من أشدّ مشقّات الإنسان في حياته. ومجيءُ الأجل هو تعبيرٌ عن "حلول الوقت المحدّد للاتّصال بين الرّوح

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 255.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 95.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

والجسد، وهو ما علمه الله من طاقة البدن للبقاء حيًّا بحسب قواه وسلامته من العوارض المُهلِكة"[1].

سِرُّ التَّعبير بالأجَل مُضافًا:

كلُّ نفس لها عُمْرٌ تستكْمِلُه وتستوفيه، وأجَلٌ تَبلُغُه ولا تجاوِزُه

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالأجل في قول الله تعالى ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ لدلالته على المدّة المضروبة لحياة الإنسان في الدّنيا؛ فالأجَلُ هو مدّةُ مُقام الإنسان في الدّنيا وعُمرِه، وإذا ما حلّ الأجل فلا تأخير، لأنّه قد استوفى مدّةَ وُجودِه.

وأضاف النّظمُ الجليلُ الأجَلَ للضَّمير العائد على النّفس، للدّلالة على ما خُصَّت به من تقدير عُمرها وأجَلِها[2]؛ فكلّ نفسٍ لها أجَلٌ وأمدٌ ينتهي عنده عُمرُها.

دلالة الواو:

عِلمُ الله الكاشِفُ موجِبٌ للمبادرة بالخيرات

صدَّرَ النّظمُ الجليل فاصلةَ الآية بالواو في قول الله جلّ شأنُه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لعطف هذه الجملة على الجملة السّابقة ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾[3]، إذا حُمِلَتِ الواوُ في جملة النَّفي على الاستئناف؛ والمعنى على هذا "إنّكم إذا علمتُم أنّ تأخيرَ الموت عن وقته ممّا لا سبيلَ إليه، وأنّه هاجمٌ لا محالة، وأنّ الله عليمٌ بأعمالكم، فمُجازٍ عليها من منعِ واجبٍ وغيره لم يَبقَ إلّا المسارعةُ إلى الخروج عن عُهْدةِ الواجب والاستعداد لِلقاء الله"[4].

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

علمُ الله تعالى بباطنِ الأمور مُؤكَّدٌ ثابتٌ

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبير بالجملة الاسميّة في قول الله جلّ شأنه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ للدّلالة على تأكيد المعنى وثبوته، فَعِلمُ الله تعالى بأعمال الإنسان الظّاهرة والباطنة مُحقَّقٌ مؤكّد، لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 256.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 417.
(3) محمود صافي، الجدول: 14/ 262.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 488 - 489.

يَشوبُهُ شكّ[1]. وفي هذا التّأكيد ترغيبٌ للمؤمنين من إكثار الأعمال الصالحة، وترهيبٌ للكافرين، فاللّهُ مُطَّلِّع على جميع أعمالهم.

دلالة التّعبير بالاسم الأحسن ﴿خَبِيرٌ﴾ مُقَدَّمًا:

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الخبير في قول الله جلّ شأنه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لدلالته على العلم بظواهرِ الأمور وخفيّها؛ فهو تعالى يعلم ما ظهر من الأعمال وما خفيَ منها، كأعمال القلوب والنّيّات[2]. وجاء الوصف على صيغة (فَعيل) وبالتّنكير للدّلالة على كمال المبالغة في الخبرة والعلم؛ أي هو بالغُ العلم ظاهرًا وباطنًا[3].

الله يعلم الظّاهر والباطن على السّواء

وقدّم النظم القرآنيُّ كلمة ﴿خَبِيرٌ﴾ على متعلّقه ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: لأنّ حقَّه التقديم، ولأنّ سياق الآيات في الموت وما يتبعه من أمورٍ غيبيّةٌ، وهذا من اختصاص الله وصفاته سبحانه، فيناسب ذكر صفته (الخبير)[4].

دلالة الباء:

الباء الجارّة في قول الله جلّ شأنه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ للإلصاق؛ فعِلمُه تعالى ملتصقٌ بما تعملونه في الظّاهر والباطن[5]، لا ينفكّ عنه بحالٍ من الأحوال. وهذا يدلّ على كمال عِلمه، فلا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء.

تحقُّقُ عِلمِ الله بالأشياء

دلالة التّعبير بـ(ما):

عبّر النّظم الجليل بـ(ما) الموصولة في قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ - دون (الَّذي) - لما فيها من دلالة على العموم والشّمول؛ أي: (إنّه عالمٌ بكلّ عملٍ تعملونه، مهما كان). ويجوز أن تكون (ما) هنا مصدريّةً، أي: (إنّه يعلم عمَلَكم ذاتَه)[6].

كلُّ الأعمال مكشوفةٌ معلومةٌ لله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 256.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 97.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 95.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 95.
(6) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 95.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

وَسِعَ عِلمُه كلَّ ما يعمله العبدُ قولًا وعملًا

عبّر النّظم الجليل بمادّة العمل في قول الحقِّ جلّ شأنُه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لدلالتها على كلِّ ما صدَر من العبد من الأقوال والأفعال والحركات بقصد ونيّة[1]؛ فالعمل أخصُّ من الفعل، فكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا. وجاء التّعبير بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على دوام علمه تعالى بتجدّد أعمالكم؛ فمهما عملتم الآنَ أو مستقبلًا فإنّ الله تعالى يعلمه[2].

نكتةُ تَرْكِ المفعول:

يشمَل علمُه تعالى الظّاهرَ والخفيَّ مِن الأعمال

لم يُذكَرْ مفعولُ العمل في قول الله جلّ شأنه ﴿خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لِما في هذا التّعبير من دلالة على العموم والإطلاق؛ فالله تعالى يعلم كلّ ما عملوا من اللّهوِ والانشغال عن ذكر الله، والإعراضِ عن الإنفاق، وغيرِها ممّا ظهر وخَفيَ من الأعمال والأقوال والنيّات.

توجيهُ قِراءَتَيْ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

اللهُ خبيرٌ بأعمالِ جميع المكلَّفين، ويجازيهم عليها

اختلف القرّاء في ضمير الفعل من قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فقرأ شعبة بياء الغَيبة (يعملون)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ فوجه من قرأ بالغيبة أنّه من باب الموافقة لما قبله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ والمعنى: (لن يُؤخِّرَ اللّهُ نفوسَ الخلق إذا جاءت آجالُهم)، لأنّ النَّكرةَ في سياق النَّفي تفيدُ العموم؛ ثمّ قال تعالى (والله خبير بما يعملون) مع كثرتها وتنوُّعِها. وأمّا من قرأ بالخطاب فوجهُه أنّه يعُمُّ المخاطَبين أصالةً وغيرَهم تبعًا[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 97.
(3) ابن أبي مريم، الموضح: 3/ 1272.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتيانُ والمجيء:

الإتيان يدلُّ على مجيءٍ بسهولةٍ وإزالةِ موانع ومعوِّقات، وأمّا المجيءُ ففيه شدّةٌ وصعوبة[1]. وعبّر في الموضع الأوّل بالإتيان ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، لأنّ الموتَ سنّةٌ من سُنَنِ الله في خلقه؛ فهو إخبارٌ عامٌّ عن مجيء الموت، وليس حديثًا عن ساعة الموت الشّديدة. ثمّ السّياقُ فيه عمّا قبل الموت، والمرء في فُسحةٍ من الحياة، بخلاف الموضع الثاني ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾، فعند حضور الأجَل تتجلّى مشاقُّ الموت، وتغشى الإنسانَ سَكَراتُه.

الإتيانُ ما جاء سهلًا بلا موانع، والمجيءُ ما فيه صعوبةٌ وشدّةٌ

خبير وعليم:

العِلْمُ إدراكُ الشَّيء بحقيقته[2]، وهو نقيضُ الجَهْل[3]، وأمّا الخِبْرَة فهي المعرفة ببواطن الأمر؛ فالعليم مُدرِكُ الشّيء على حقيقته، وأمّا الخبير فهو العالِم ببباطن الشّيء. وقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: 153]، أي: (عالمٌ بأخبار أعمالكم، وببواطن أموركم)[4]؛ فأخبر في الآية بأنّه خبيرٌ للدّلالة على علمه بأسرار الآجال، ومكنوناتِ العباد، وغيرهما ممّا تضمّنته الآيةُ ممّا يقتضي علمًا باطنًا.

الخبيرُ أخصُّ من العليم، لأنّه عِلمٌ ببواطنِ الأمور

(1) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جاء، جيأ)، (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(4) الرّاغب، المفردات: (خبر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"